.

ج التقديم والتأخير :

(١) كثير من الآيات الكريمة ختمت بذكر أسماء الله عز وجل وصفات من صفاته .

والمتدبر لهذه الآيات الكريمة يلمس فيها أسرار الإعجاز و ولطائف البيان ظاهرة بينة

وكثير من هذه الآيات - بل أكثرها - تجدها تجمع بين اسمين أو صفتين لله تبارك وتعالى ، ونجد أن بعض هذه الأسماء يطرد تقديم بعضها على بعض ، فكثير

من الآيات ختمت بقوله سبحانه " عزيز حكيم " و " سميع بصير " و " قوي عزيز

" عليم خبير " ، ولا نجد آية خرجت عن هذا النظم البديع ، فليست هناك آية قدمت

فيها الحكمة على العزة ، فلم نقرأ " إن الله حكيم عزيز " ، أو العزة على القوة

"عزيز قوي " ، كما لم نجد أي آية قدم فيها البصر على السمع " بصير سميع " ، ولا

نجد آية كذلك قدم فيها خبير على عليم ؛ ذلك لأن الترتيب الطبيعي والمنطق

البياني يستلزم ما جاء عليه النظم القرآني .

فإذا اجتمعت العزة والحكمة ، فحري أن تقدم العزة ؛ لأن الحكمة لن تؤتي

ثمارها ، ولن تكون لها نتائجها إلا إذا سبقتها العزة ، ونقيض العزة الذلة ، وما

أبعد الذلة عن الحكمة .

لكننا نجد أن القوة قدمت على العزة في مثل قول الله سبحانه " إن الله قوي

عزيز " ذلك لأن العزة بدون قوة دعوى لا تثبت أمام الأحداث ، ولا تقوى على

البقاء .

وكذلك السمع والبصر ، نجد السمع يقدم على البصر في القرآن كله ، سواء

كان ذلك من أوصاف الله تعالى ، أم من أوصاف الناس التي أنعم الله بها عليهم ،

مثل {وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة } .

وكذلك العلم والخبرة ، لأن الخبرة أخص من العلم ، لذا لم نجد آية جاء فيها (خبير عليم)

لكننا ونحن نتدبر الآيات الكريمة ، نجد أن بعض الأسماء الجليلة ، قدم بعضها على بعض في بعض الآيات ، وأخر في بعضها الآخر ، ونتدبر نماذج من بعض الآيات الكريمة.

الأنموذج الأول : المغفرة والرحمة :

جميع الآيات في كتاب الله تبارك وتعالى ، قدمت فيها المغفرة على الرحمة ،

لأن المغفرة ستر للذنوب ، أما الرحمة فتفضل وإنعام زائد على مغفرة الذنوب ، لذا

قدمت المغفرة على الرحمة ، والتخلية مقدمة على التحلية .

لكننا نجد آية واحدة من كتاب الله تبارك وتعالى قدمت فيها الرحمة على المغفرة ، وهي قوله سبحانه في أول سورة سبأ { يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج

منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو الرحيم الغفور } (سبأ : ٢] ، فلم

كانت هذه الآية بدعا من أخواتها ؟

إن المتدبر للسياق القرآني يمكن أن ينعم بالحكمة البيانية والموضوعية كذلك ،

التي جاء عليها نظم الآية القرآنية . إن السياق الذي جاءت فيه سياق القدرة والعلم،

سياق العناية بهذه المخلوقات كلها ، ما في السماوات وما في الأرض ، ما يلج في

الأرض وما يخرج منها ، ما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، ورحمة الله تبارك

وتعالى تتجلى لهذه المخلوقات جميعا ، الشمس والقمر ، والليل والنهار ، والنجوم

والجبال ، والماء والمرعى ، والنار والهواء ، كلها تظهر فيها الرحمة ، لذا كانت الرحمة جديرة بالتقديم في هذه الآية وحدها من كتاب الله .

أما غيرها من الآيات والتي قدمت فيها المغفرة على الرحمة ، فقد ذكرت كلها

في سياق ذنوب العباد ، أو في سياق تقصيرهم فيما أمروا به . أما الآية التي قدمت

فيها الرحمة على المغفرة ، فليس فيها شيء من هذا كله ، لا من ذنوب العباد ، ولا من تقصيرهم فيما أمروا به .

أرأيتم إلى هذا البناء المحكم ، وهذا النظم البديع ؟

الأنموذج الثاني : العلم والحكمة :

أكثر الآيات الكريمة جاءت على هذا النظم " إن الله عليم حكيم " أو " إن ربك عليم حكيم " ، ولكننا نجد بعض الآيات قدمت فيها الحكمة على العلم ، قال تبارك وتعالى يحدثنا عن ، أبينا إبراهيم صلى الله عليه وسلم{ فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ، قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم } [الذاريات : ٣٠] .

" والمتأمل في السياق ، والمتدبر للآيات الكريمة ، يجد أن هذا التقديم أو التأخير كان أمرا يحتمه المعنى ويتطلبه الموضوع ، وتقتضيه الحكمة ، فأما تقديم العلم على الحكمة ، فأظنه ظاهرا لا يحتاج إلى بيان ، إذ من مقتضيات الحكمة أن يسبقها العلم ، واليكم بعض هذه الآيات ، قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [يوسف: ٦] وقال تعالى ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الحجرات: ٧-٨] . أما تقديم الحكمة على العلم فتجد أن الموضوعات التي جاء فيها هذا النظم ، كانت الحكمة فيها هي الأساس ، فبشارة إبراهيم وامرأته بالغلام ، حيث يتعذر الحمل والإنجاب ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴾ [هود: ٧٢] أمر لله فيه حكمة ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [الذاريات: ٣٠] .

الأنموذج الثالث : المغفرة والحلم :

ختمت بعض الآيات الكريمة بهذين الاسمين الجليلين ، تارة تتقدم المغفرة • وأخرى يتقدم الحلم ، قال تعالى (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم) (البقرة : ٢٢٥] ، وقال تعالى (ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما في نفوسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم] [البقرة : ٢٣٥] . وقال سبحانه { تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا } [الإسراء : ٤٤] . وقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١] . تدبر الآيتين الأوليين ، وهما مدنيتان ، تجد فيهما - وهما خطاب للمؤمنين - تحذيرا من مخالفة حدود الله ، والخروج على شرعه : لذلك قدمت فيهما المغفرة ، والمغفرة ستر الذنب كما قلت . وتدبر الآيتين الأخريين وهما مكيتان ، وليستا خطابا للمؤمنين ، تجد أنهما تتحدثان عن العناية الربانية ، فالله سبحانه لا يعجل العقوبة للناس ، وهذا هو المراد بالحلم.

(٢) صفات المؤمنين :

تقرأ في آخر آية من سورة الفتح { محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم } [الفتح : ٢٩] . على حين نقرأ في سورة المائدة { يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين } [آية : ٥٤] . ففي كل من الآيتين ذكر للمؤمنين وصفان اثنان : فالآية الأولى قدمت فيها (الشدة على الكفار) ، أما الثانية فقدمت فيها (الذلة على المؤمنين) ، قلم هذا التقديم والتأخير في الآيتين ؟ وما هو السر البياني ؟ إن الآية الأولى من سورة الفتح ، وهي تتحدث عن الجهاد ومجالدة الأعداء ؛ لذا كان من الحكمة أن تقدم فيها الشدة على الأعداء ، أما الآية الثانية ، فالسياق الذي جاءت فيه وجوب موالاة المؤمنين بعضهم بعضاً ، ونهيهم عن موالاة غير المؤمنين ؛ لذا جاء نظم الآية على ما هو عليه {أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين } . ويزداد الأمر وضوحا لك إذا عرفت أن سورة الفتح جاءت تتحدث عن صد المشركين ، صدهم المؤمنين عن المسجد الحرام ، وعن أن يتموا عمرتهم ، وسورة

المائدة بُدئت بأمر المؤمنين بالوفاء بالعقود ، وهذه العقود تشمل ما بينهم وبين الله ، وبينهم وبين الناس ، ومن أهمها أن يكون ولاء المؤمن لله ورسوله والمؤمنين .

(٣) نقرأ في وصف المنافقين ، وفي وصف الكافرين ، هاتين الآيتين من سورة البقرة (صم بكم عمي فهم لا يرجعون) (البقرة: ١٨] (صم بكم عمي فهم لا يعقلون) البقرة : ١٧١] وتقديم الصم ، هنا جاء في غاية الإحكام ، لأن بداية ضلال أولئك الأقوام ، حينما أصاخوا بسمعهم عن آيات الله التي تتلى عليهم .وتقرأ في مشهد من مشاهد يوم القيامة عن أولئك الذين ضلوا سواء السبيل (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما) [الإسراء:٩٧] لقد تغيرت الصورة هنا ، لذلك تغير معها نسق القول ، ذلك لأن السماع لم ينفع أولئك الناس يوم القيامة شيئا ولا يعود عليهم بخير ، ثم إن العمى هو من أشد الأمور مشقة وأكثرها صعوبة عليهم في ذلك اليوم.

وهناك فرق آخر وهو أن هذه الآية التي تتحدث عن يوم القيامة تحمل على حقيقتها ، فهم يحشرون كذلك ، يفقدون هذه الحواس الثلاث ، أما آيتا البقرة ، فالمقصود منهما التشبيه ، لأن الكافرين والمنافقين لم يكونوا كذلك بل لهم أذانا وأعينا والسنة ، لكنهم لم يستعملوا حواسهم فيما هو خير فكأنهم لا حواس لهم .

(٤) ونقرأ قول الله تعالى يحث المؤمنين على العدل والقسط { كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين } [النساء : ١٣٥] . وقوله سبحانه { كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى } [المائدة:٨]. فإذا عرفنا أن الآية الثانية نزلت في شأن العدل مع أعداء الإسلام ، وأن الأولى نزلت في شأن تحقيق العدل مع ذوي الرحم أدركنا سر النسق في الآيتين الكريمتين . فعدم العدل مع الأعداء ربما يظن أنه من الأمور المستحسنة التي يتقرب بها إلى الله ؛ لذا تقدمت فيه كلمة (لله) ولا كذلك الآية الأولى لأن القسط فيها هو الأهم .

(٥) نقرأ قول الله تعالى (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه] [الأنفال : ١١] ، ونقرأ قوله سبحانه في آية أخرى (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا) (آل عمران: ١٥٤) . فانظروا كيف قدم النعاس في الآية الأولى على الأمنة ، وأخر في الآية الثانية ، ويقينا لابد من حكمة بيانية لهذا النظم البديع . فإذا عرفنا أن آية الأنفال كانت في بدر ، وأن آية آل عمران في أحد ، وعرفنا أن حاجة المسلمين في بدر كانت إلى الراحة والنوم لأن الله قد تكفل لهم بالنصر حيث وعدهم إحدى الطائفتين ، أما في أحد فلقد

كانت حاجتهم بعد أن أصابهم ما أصابهم إلى الأمن والطمأنينة ، إذا عرفنا ذلك أدركنا سر التقديم والتأخير في الآيتين الكريمتين ؛ فقدم في كل آية ما يتلاءم مع ظرف الجماعة المسلمة وحاجتهم .

(٦) نقرأ قول الله تعالى (تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) | الصف : ١١] وقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ﴾ [التوبة: ١١١] . فالآية الأولى ، وكثير مثلها في كتاب الله تعالى تتحدث عن الجهاد في دور الاعداد ، ومن مقدماته الضرورية المال . لكن الآية الثانية تتحدث عن القتال في معمعة الوغى ، لذلك قدمت الأنفس بدليل {يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ} [التوبة : ١١١] .

(٧) الجن والإنس :

تحدث القرآن الكريم في آيات كثيرة عن الجن والإنس ، ولكن الذي يلفت الانتباه ، ما نجده في النظم القرآني البديع ، من تقديم الجن تارة ، وتقديم الإنس أخرى ، وهذا ما يستدعيه السياق ، وتوجيه الحكمة البيانية ، ففي سياق التحدي بالقرآن الكريم ، يقدم الإنس على الجن ، لأن الإنس هم المقصودون بالتحدي أولا وقبل كل شيء ، قال تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) [الإسراء : ٨٨) . أما في سياق التحدي بالنفوذ من أقطار السماوات والأرض ، فلقد قدم الجن؛لأنهم أقدر على الحركة من الإنس ، قال تعالى ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣] . أما قوله سبحانه { وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون }] الذاريات:٥٦] فلقد قدم الجن على الإنس : لأنه قد روعي السبق الزمني ، فإن الجن مخلوقون قبل الإنس . وهكذا نجد الكلمة القرآنية تقدر في مكانها الذي جاءت فيه (ذلك تقديرالعزيز الحكيم) .

(٨) الصبر والتقوى : ومن جمال النظم القرآني أن نقف مع هاتين الآيتين الكريمتين : أما الآية الأولى فهي قوله سبحانه في سياق تحذير المؤمنين من موالاة أعدائهم ، ونهيهم أن يتخذوا بطانة من دونهم ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ

يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ [آل عمران: ١٢٠] أما الآية الثانية فهي قوله سبحانه حديثا عن يوسف عليه الصلاة والسلام { إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين } [يوسف : ٩٠] . ففي مجال مكائد الأعداء ، وعدم موالاتهم ، وعدم اتخاذهم بطانة ، وفي مجال التحذير من الوقوع في شرك الأعداء في هذا المجال يقول الله (وإن تصيروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا). ومثل هذه الآية قوله سبحانه (لتبلون في أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور } (آل عمران : ١٢٠] فانظروا كيف قدم الصبر في هاتين الآيتين لأنهما تتحدثان عن شؤون المؤمنين مع أعدائهم . أما في الأمور المعتادة بين الناس فقد قدمت التقوى (إنه من يتق ويصير فإن الله لا يضيع أجر المحسنين] فالشأن هنا بين يوسف وإخوته.